الحياة الطيّبة
السنة 27
العدد 53-52
شتاء-ربيع 2023م

الخطاب الدينيّ..
أصالة الضمون وحركيّة الأسلوب

الشيخ حسن أحمد الهادي[1]

الحمد لله ربّ العالمين، وصلّى الله على سيدنا محمد ﷺ، وعلى آله الطاهرين عليهم السلام، وبعد...

لقد كثرت وتنوّعت الدراسات اللغوية والعلميّة والفنيّة التي تتناول الخطاب الدينيّ والثقافيّ، إلا أنّها جميعاً تسير في نهج واحد وتتّجه نحو غاية واحدة وهي أنّه ينطلق من الدين الإسلامي الحنيف؛ منهجاً، ومضموناً، وأسلوباً، وحقّانيةً، وتخصّصاً علميّاً أو فكريّاً أو دعوياً.

فالخطاب الديني هو الخطاب المتمثّل بالفعل البشري الهادف إلى التبليغ، ونشر تعاليم الدين، ودعوة الناس إلى الالتزام بأحكامه وتشريعاته، فيكون معبّراً عن حصيلة الفهم البشري من الدين المنزّل وما يقوم به البشر من جهد لنشر هذا الفهم ووضعه موضع التطبيق، وتقديمه إلى جمهور الناس على أنّه الوصف السليم والفهم الصحيح للإسلام في عقيدته ونظامه الأخلاقي وآدابه وشريعته.

وبتعبير جامع هو البيان الذي يوجّه باسم الإسلام إلى الناس مسلمين أو غير مسلمين لدعوتهم إلى الإسلام وتعليمه لهم وتربيتهم عليه عقيدةً وشريعةً وعبادةً ومعاملة، فكرًا أو سلوكًا أو لشرح موقف الإسلام، بيانًا أو عرضًا له، وتحليلًا أوتوجيهاً لنصوصه ودعوة إليه. انسجاماً

(1) رئيس تحرير مجلة الحياة الطيبة.

مع قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ ٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ يَنزَغُ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٗا مُّبِينٗا﴾[1]. فهذا أمر إلهي بكلّ كلام يقرّب إلى الله من قراءة وذكر وعلم وأمر بمعروف ونهي عن منكر وكلام حسن لطيف مع الخلق على اختلاف مراتبهم ومنازلهم، وأنه إذا دار الأمر بين أمرين حسنين فإنه يأمر بإيثار أحسنهما إن لم يمكن الجمع بينهما.

ويعلّق السيد الطبطبائي قدس سره على الآية قائلاً: "وخلاصة مضمونها الأمر بإحسان القول ولزوم الأدب الجميل في الكلام تحرّزاً عن نزغ الشيطان...، ومن هنا يظهر أنّ المؤمنين قبل الهجرة ربّما كانوا يحاورون المشركين فيغلظون لهم في القول، ويخاشنونهم بالكلام، وربما جبهوهم بأنهم أهل النار، وأنّهم معشر المؤمنين أهل الجنة ببركة من النبي صلى الله عليه وآله فكان ذلك يهيج المشركين عليهم ويزيد في عداوتهم ويبعثهم إلى المبالغة في فتنتهم وتعذيبهم وايذاء النبي صلى الله عليه وآله والعناد مع الحق. فأمر الله سبحانه نبيه صلى الله عليه وآله أن يأمرهم بقول التي هي أحسن"[2]. وهو توجيه نحو الخطاب الأحسن حتى مع هذه الفئة المشركة من الناس، وليس ذلك إلا بهدف تثبيت قواعد الخطاب عند المسلمين تجاه الآخر. قال تعالى في مورد آخر: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾[3].

هذه الآية تعتبر نداء «الوحدة والاتّحاد» إلى أهل الكتاب، فهي تقول لهم: إنّكم تزعمون أنّ التثليث (أي الاعتقاد بالآلهة الثلاثة) لا ينافي التوحيد، لذلك تقولون بالوحدة في التثليث. وهكذا اليهود يدعون التوحيد

(1) سورة الإسراء، الآية 53.
(2) الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، ج13، ص118.
(3) سورة آل عمران، الآية 64.

وهم يتكلّمون بكلام فيه شرك ويعتبرون «العزير» ابن الله. فيقول لهم القرآن: إنّكم جميعاً ترون التوحيد مشتركاً، فتعالوا نضع يداً بيد لنحيي هذا المبدأ المشترك بدون لفّ أو دوران، ونتجنّب كلّ تفسير يؤدّي إلى الشرك والإبتعاد عن التوحيد.

واللافت للنظر "أنّ الآية الشريفة تؤكّد موضوع التوحيد في ثلاث تعابير مختلفة، فأوّلاً ذكرت (ألاَّ نعبد إلاَّ الله) وفي الجملة الثانية (ولا نشرك به شيئاً) وفي المرّة الثالثة قالت (ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله)"[1].

وهذا نموذج آخر من الخطاب الإلهي في القرآن الكريم لتعليم المسلمين الخطاب النموذجي والحكيم حتى في موارد الخلاف في القضايا العقائدية الحساسة والرئيسة المرتبطة بعقيدة التوحيد، لكن على قاعدة تحقيق الهدف الكشترك والسليم المتمثّل بتوحيد الله تعالى.

والقول الأحسن والكلمة السواء، هو ذلك الخطاب الذي يؤكّد حسن التواصل، فيوثق علاقات المحبّة والمودّة والتعاون والانسجام حتى مع من نختلف معه.

والخطاب الأحسن هو الذي يعترف بالآخر، فيحترم آراءه ويصبر عليها، ليعالجها بحكمةٍ ومرونةٍ ومنطقٍ وموضوعيّة. هو الذي يعتمد الآداب الإسلاميّة في الإصغاء والحوار، فلا تعجّب ولا دهشة ولا تساؤل، بل تقديرٌ وإيجابيّة. هو الذي يُشرِك جميع فعاليات الشخصيّة الماديّة والفكريّة والروحيّة والعاطفيّة من خلال تنوّع الوسائل والمهارات الحياتيّة. كلّ ذلك يفرض علينا أن نمتلك ثقافة التنوّع في الأساليب التي تعالج الفروقات الفكرية والثقافية، فما ينسجم مع فردٍ وقد يكون هو الأحسن بالنسبة إليه، فقد لا يكون كذلك بالنسبة لشخصٍ آخر.

(1) مكارم الشيرازي، ناصر، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج2، ص538.

تحدّيات الخطاب الديني:

يواجه الخطاب الديني العديد من التحدّيات المتنوّعة، في ظل ما شهده العالم المعاصر من ثورة المعلوماتية والاتصالات التي جعلت الناس أمام بحر هائل من المعلومات، وفي مواجهة سيول من الخطابات تبث بشكل حي عبر المواقع الالكترونية ووسائل التواصل والقنوات التلفزيونية والمطبوعات الورقية والالكترونية وغيرها من الوسائل والوسائط، والتي تحمل إليه الغث والسمين والضار والنافع والمفيد وغير المفيد، الأمر الذي يصّمه عن الاستماع إلى الخطاب الثقافي والتربوي التقليدي الذي يتلقّاه، ويشغله عن الالتفات إليه، الأمر الذي يدعو إلى تحديث الخطاب الإسلامي مضموناً وشكلاً وأسلوباً بما ينسجم مع الواقع القائم للوصول به إلى مستوى الجذب والتأثير والمنافسة.

وإذا كان الكلام البليغ هو المطابق لمقتضيات حال الخطاب، فلا بدّ من تجديد دراستنا لمقتضيات أحوال المخاطبين من جهة القدرات اللغوية والأحوال النفسية والاهتمامات والاستعدادات الذهنية، وأن يرتقي الخطاب الثقافي الإسلامي ليتناسب مع كل ذلك مضموناً، وليكون قادراً على جذب انتباههم وتلبية حاجاتهم والأخذ بأيديهم وبأذهانهم نحو الهدف المرتجى.

ورغم أهمية ما نشهده اليوم من نقلة نوعية باتجاه مأسسة العمل التبليغي والتربوي الإسلامي، والعمل على تطوير الخطاب الثقافي الإسلامي، ورغم النجاحات التي تحقّقت حتى الآن، ورغم السعي الدؤوب للانتقال من المبادرات الفردية التي كانت سائدة لقرون في تحديد أولويات الخطاب وطريقة عرضه واختيار وسائله، إلى العمل المنظّم والممنهج، ومن النظرة الآنية والتشغيلية إلى الرؤية الإستراتيجية والشمولية، إلا انه لا زال هناك العديد من الثغرات والكثير من الصعوبات التي تحتاج إلى تذليل. فإذا قارنا

ما تحقّق مع حجم التحدّيات الداهمة، والحاجات الفعلية والمستقبلية، سوف ندرك أن ما يجب العمل عليه كبير جداً من حيث الكم، ومتنوّع جداً من حيث الخطاب والأسلوب والتقنيات.

عناصر قوة الخطاب الديني:

1. مصدر الخطاب:

يعتبر مصدر الخطاب من جملة المسائل التي لها دورٌ فعَّال في نجاح الخطاب وتأثيره. وهنا نقول أنَّه كلّما كان مصدر الخطاب ذا قيمة عند المخاطَب كان اهتمامه بذلك الخطاب موازياً له في القيمة والأهميّة وأكثر استجابة له، وإنّ "مصدر الخطاب" في الخطاب الدّيني هو الله تعالى، الغني، العارف معرفةً تامّةً بالمخاطَب، والمصالح العامّة المرتبطة به. ولدينا في القرآن الكريم الكثير من الآيات التي تشير إلى مصدر الخطاب والرّسالة, وتعرّف مبدأه والتي تبيّن بشكلٍ صريح أنَّ ما يبلِّغه النبي' للناس هو البلاغ والخطاب الإلهي: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ... ﴾[1]. ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[2].

وتتصدّى بعض الآيات إلى إثبات صدق الإسلام في تبليغ الرسالة الإلهية: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ... ﴾[3] ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾[4].

ومن الواضع -بعد التتبّع- أنّ الكثير من المذاهب الحاملة لخطابات ورسالات مختلفة على مرِّ التاريخ، قد اضمحلّت واندثرت بسبب الأغراض

(1) سورة يونس، الآية 15.
(2) سورة الحجر، الآية 9.
(3) سورة فصلت، الآية 6.
(4) سورة النجم، الآية 4.

المادية والشّخصية. وفي المقابل فإنَّ الإسلام، هذه الرسالة النابضة بالحياة، والتي مصدرها ومبدؤها الله عزّ وجلّ، لم تضمحل أو تندثر كغيرها فحسب، بل إنّها تزداد يوماً بعد يوم نفوذاً وانتشاراً في قلوب الناس وعقولهم. والسبب في ذلك هو المضمون والخطاب الراقي الذي يقدّمه الإسلام من أجل هداية الناس. ومع وجود مثل هذا المبدأ العظيم والذي هو خالق كلّ هذا الكون، فلا بدّ أن يقدِّم في خطابه ورسالته أكمل الأهداف وأرقاها لجذب كلّ القلوب إليه، لأنّ الخطاب بأهدافه القيّمة يعكس تمام الانعكاس مصدره ومبدأه، ويخبر بشكلٍ تام عن درايته وعقله؛ لذا فإنَّ آثار هداية هذا الخطاب والرسالة قد تقدَّمت على كلِّ الرسالات الأخرى وجذبت إليها القلوب الطّاهرة، وسقت من زلال كوثرها كلّ أتباعها شباباً ورجالاً ونساءً.

2. الحقّانية:

الحق لغةً بمعنى الثّابت، المستقر، وأن يكون ثابتاً أي لا يتطرّق الإنكار إليه[1]. وعلى هذا الأساس فإنَّ المقصود من حقّانية الخطاب في مجال تبليغ الدِّين هو العرض الصحيح للمعتقدات والشعائر الدينية[2]، وحيث إنَّ مبدأ الخطاب في الخطابات الإلهية هو ذات الحق المطلق فإنَّ خطابه أيضاً هو حق، قال تعالى: ﴿... تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ ...﴾[3]. وفي هذا المجال يقول الأستاذ آية الله جوادي آملي: "لا يوجد أيُّ ترديد وشكٍّ في أصل الدِّين والكتاب لأنه حقٌّ: ﴿... وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ... ﴾ فالكلام عندما يُسند إلى الله تعالى فإنَّه لا يمكن أنْ يتطرَّق أيُّ شكٍّ وترديدٍ إلى محتواه ومدلوله. أي أنَّ كلام الله محكمٌ بحيث لا يَحتَمِلُ الشكَّ سواء من حيث السَّند أم من حيث المتن. وبعبارة

(1) لغت نامه دهخدا (قاموس دهخدا).
(2) انظر: معارف القرآن، ص162.
(3) سورة الرعد، الاية 1.

أخرى سواء من حيث استناد هذا الكلام إلى الله أم من حيث محتوى الكلام- أيْ الداعي ودعوته- فإنَّه مصونٌ من الشَّك"[1].

يقول القرآن الكريم في توصيف الحق وتشخيصه في مقابل الباطل: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۖ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾[2].

وهذا ما يؤكّد أنّ الخطاب الدّيني والرسّالة الإلهية تُعتبر من مصاديق الحق وقد تعرَّضَتْ بشكلٍ كبيرٍ للوضع والتَّحريف، ولذا يجب علينا إتباعاً للحق ولديمومته أن نقدِّم تلك الخطابات بعيداً عن أيّ نوعٍ من التحريف لئلا يبقى أيّ مجالٍ للباطل وفي غير هذه الصورة فإنَّها – أي الخطابات- ستتلون بلون الباطل وتنتشر آثاره السلبية والهدّامة[3].

3. العقلانية:

الخاصيّة الثالثة للخطاب: أن يكون عقلانياً، والمراد من العقلاني في اللغة هو العقلي والمنسوب إلى العقل. وإذا كان الخطاب متوافقاً مع العقل والمنطق، أي إذا كان بنحو يجذب إليه عقل الإنسان فإنَّ مثل هذا الخطاب سيكون بلا شك خطاباً عقلانياً, وستكون له قيمة وامتيازات كبرى. يقول آية الله مرتضى مطهري: "أول شرطٍ لموفّقية الخطاب أنْ يكون عقلياً وقوياً من حيث المحتوى، أيْ أنَّ نفس الخطاب ماذا يقدِّم للإنسان؟ وكيف يمكن تطبيقه على ما يحتاجه الناس". ولذلك لا بدّ للخطاب الدِّينيّ أن يكون خطاباً عقلانيّاً، ليتمكّن من الدوام والاستمراريّة والنفوذ في قلوب

(1) تفسير موضوعي قرآن، ج1، ص50 و52.
(2) سورة الرعد، الآية 17.
(3) انظر. نهج البلاغة. الخطبة50: "إنّما بدء وقوع الفتن أهواء تتبع وأحكام تبتدع .. فلو أنّ الباطل خلص لم يخف على ذي حجى، ولو أنّ الحق خلص لم يكن اختلاف ولكن يؤخذ من هذا ضغث ومن هذا ضغث فيمزجان معاً فهنالك استحوذ الشيطان على أوليائه ونجا الذين سبقت لهم من الله الحسنى".

الناس. يقول الله عزّ وجلّ في القرآن الكريم: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ... ﴾[1].

ويذكر "الرّاغب" في مفرداته أنَّ: "الحكمة إصابة الحقّ بالعلم والعقل".

وقال آية الله الشيخ مكارم الشيرازي في تفسير الآية المذكورة شارحاً معنى الحكمة بقوله: "الحكمة بمعنى العلم والمنطق والاستدلال.. وأوّل خطوة على طريق الدّعوة إلى الحق هي التمكّن من الاستدلال وفق المنطق السليم، أو النفوذ إلى داخل فكر الناس ومحاولة تحريك وإيقاظ عقولهم كخطوة أولى في هذا الطريق"[2].

ويعتقد الشهيد المطهري أنّ الحكمة مرتبطة بالعقل والفكر، فالحكمة هي لأجل التفكر واليقظة، وهي لسان العقل وقد سعى الأنبياء في دعوتهم إلى إبلاغ كلامهم بمخاطبة العقول أولاً[3].

ولا بدّ من التأكيد هنا بأنَّ العرض العقلاني للخطاب الدّيني يراد منه الطّرح الصّحيح للأفكار والمعتقدات الدّينيّة والابتعاد عن أيِّ شكلٍ من أشكال الخرافات، لأنَّ الدِّين والخطاب المنبعث منه إذا قُدّما بنحوٍ خالٍ من التَّحريف والخرافة فلن يتعارضا أبداً مع الموازين العلميّة والعقليّة.[4]

4. الخطاب المحرّك للعواطف والأحاسيس:

لا بدّ للخطاب - مع كونه عقلانياً- أن يكون محرِّكاً للعواطف والأحاسيس أيضاً. لأنّ الإحساس جزءٌ من تركيب الإنسان قد أودع في ذاته، وإذا كان العقل بمنزلة المصباح الذي يضيء طرق الحياة ويصون الإنسان من التيه والضلال؛ فإنّ العواطف والأحاسيس تُشَكِّل القوّة المحركة في هذه الطرق

(1) سورة النحل، الآية 125.
(2) تفسير الأمثل، ج8، ص369.
(3) انظر: مطهري، مرتضى، "التبليغ والمبلّغون"، ص 294 و 68؛ ولذا فإنَّ الإمام علي عليه السلام يعلّل بأنَّ بعثة الرسل الإلهيين إلى الناس إنّما هي: "ليثيروا لهم دفائن العقول" (نهج البلاغة، الخطبة الأولى).
(4) انظر: بحار الأنوار، ج88، ص163.

والمسالك. ولا بدّ هنا من الإذعان بأنَّ دور العاطفة والإحساس الإنساني في تحريك عجلة الحياة لا يقلُّ عن دور العقل بل قد تسبقه في بعض الموارد. ولذا فإنّ أنبياء الله - في دعوتهم للبشر- لم يغفلوا عن دور الأحاسيس البشرية فعملوا على تحريكها وجذبها ليتمّ نقل خطابهم بالنحو الأفضل. يقول الله تبارك وتعالى في القرآن الكريم: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا ٤١ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ٤٢ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا﴾[1].

إنّ كيفية محاورة النبي إبراهيم عليه السلام مع عمِّه آزر- الذي كان عابداً للأصنام كما ورد في الروايات- يُرشدنا إلى أنَّ النُّفوذ إلى قلوب الأفراد والتأثير فيهم يحتاج إلى المنطق الممتزج بالمحبَّة والاحترام والعطف والرحمة، ولذا فإنّنا نرى إبراهيم عليه السلام ينادي آزر بلحنٍ عطوف وفي منتهى الأدب أربع مرات بقوله: ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ من أجل تحريك عواطفه وأحاسيسه، بل إنَّ آزر عندما قام بتهديد النبي إبراهيم عليه السلام خاطبه مجدّداً بكل مودَّة ورحمة ووعده بأنّه سيستغفر له ربه.

وكذلك نرى القرآن الكريم في العديد من الآيات يقول لمخاطبيه ﴿وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ / وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ/ و... ﴾، وهذا النوع من الخطاب مؤثرٌ جدّاً في تحريك العواطف. فإنّنا فنرى الله تعالى, كمثالٍ على ذلك, يخاطب أهل الكتاب قائلاً لهم: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ ٧٠ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾[2].

(1) سورة مريم، الآيات 41-43.
(2) سورة آل عمران، الآيتان 70-71.

وكذلك فإنَّه في مورد بيان القبح الكبير لذنب الغيبة فإنه يستعمل التشبيه المثير للمشاعر فيقول عزّ وجلّ: ﴿... أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ...﴾[1].

ولذا الاهتداء والاقتداء بالأنبياء عليهم السلام في مجال تبليغ الدِّين وتقديم الخطاب السَّماوي من خلال تحريك المشاعر عند المخاطبين، وفي هذا المجال ينبغي السعي إلى عرض المطالب بصورة ميَّسرة وسهلة لنسج علاقةٍ وارتباطٍ قريبٍ وحميمٍ مع المخاطبين.

5. الهادي:

من الخصائص الأخرى للخطاب, أن يكون خطاباً هادياً أو موجّهاً، والتوجيه تعني قيادة القافلة البشرية التي تتحرك في مسيرٍ خاصٍ بها؛ وكما هو الحال لدى رُبَّان الطائرة الذي يقوم بتوجيهها، فنراه عند الحاجة أحياناً يسرع، وأحياناً أخرى قد يخفِّف سرعته ويحافظ على توجيه طائرته خوفاً من السقوط والكارثة ويسعى لإيصالها إلى المقصد بسلامة. وهذا ما يحتاج إليه فعلاً الذي يتصدَّى للقيادة والهداية في المجتمع الإنساني، فلا بدّ له أن يعرف المسير الذي يتحرك فيه المجتمع، وإلى أين ينتهي وما هي أسباب سعادته؟ وحيث أن الله سبحانه وتعالى محيطٌ ومطّلعٌ تماماً على مسير حركة القافلة البشرية؛ كانت قوانينه وشرائعه الموجبة للسّعادة حاويةً لأرقى المضامين من أجل هداية الإنسان في الدنيا والآخرة. وقد استعمل الله تبارك وتعالى خاصيّة الهداية في مجال وصف القرآن الكريم فقال عزّ وجلّ: ﴿... وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾[2].

(1) سورة الحجرات، الآية 12
(2) سورة النحل، الاية 89.

﴿... يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾[1]. وفي موضع آخر من القرآن الكريم يصفه بالنور، فيقول:

﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾[2].

وإنَّ قوله تعالى في الآية السابقة "لتخرج" يشير إلى نكتتين:

1. إنَّ القرآن- وإن كان كتاب هداية ونجاة للبشر- إلا أنّه يحتاج إلى المفسِّر والمبيِّن كالنبيّ الأعظم ﷺ، ولذا فإنَّ القرآن ومع كل عظمته لا يحلُّ المشكلات من دون وجود المفسر، وهذا الأمر يُبيِّن مكانة ومنزلة مبلّغي الدِّين في إيصال الخطاب.
2. التعبير في الآية يشير في الواقع إلى التوأمة بين التغيير والتحوّل. وكأنَّ غير المؤمنين هم في محيط مغلق ومظلم، والرسول - أو القائد- يأخذ بأيديهم ويدخلهم إلى جوٍّ واسعٍ ومنير[3].

6. تناسب الخطاب مع حاجة المخاطَب:

لا بدّ للخطاب أنْ يتناسب مع قدرة استيعاب المخاطب، وطريقة تفكيره واستعداده ومستوى الثقافة والفهم لديه، ومن ثمَّ فإنَّ التقيُّد بهذه الشروط يهيّئ الأرضية اللاّزمة لتناسب الخطاب مع حاجة المخاطَب. وإنَّ تحديد وتقدير مستوى الفهم عند المخاطبين مهمٌّ جدّاً , إلى درجة أنَّ أنبياء الله قد أُمِروا بذلك في مجال تبليغ دين الله عزّ وجل، قال رسول الله ﷺ: "إنّا معاشر الأنبياء أُمرنا أن نكلِّم الناس على قدر عقولهم"[4].

(1) سورة الأحقاف، الآية 30.
(2) سورة إبراهيم، الآية 1.
(3) انظر: ناصر مكارم الشيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج7، ص455).
(4) بحار الأنوار، ج1، ص85.

ولذا فإنَّ الخطاب الإلهي إنّما نَفَذَ إلى قلوب الناس وأثَّر فيهم عامّةً بسبب تناسبه مع الاحتياجات البشرية.

يقول الشهيد المطهرّي: "لأجل أن يكون محتوى الخطاب غنيّاً, لا بدّ من تطابقه مع مشاعر الناس، وإن مراعاة الأحاسيس وإلى حدٍّ ما إشباع المشاعر القويّة للبشر، والانسجام مع حاجات الحياة والحاجات العملية والعينية (الموضوعية) للبشر يُعَدُّ من شرائط غنى مضمون أيِّ خطاب, وعليه إذا كان الخطاب مضادّاً لحاجات البشر الطبيعية فلن يكون خطاباً موفَّقاً"[1].

تعالوا لنقتدي بالمعصومين عليهم السلام في عرض خطابٍ يتناسب مع الحاجة ومستوى العلم والفهم عند المخاطبين, ليؤثِّر خطاباً فيهم كما يؤثر دواء الطبيب المعالج في الشفاء من المرض. وسوف نشير هنا إلى بعض النّكات المفيدة في معرفة حاجات المستمعين والمخاطبين:

- الالتفات إلى سنِّ المخاطبين؛ لأنّه من البديهي أنّ الحاجات عند الأطفال، الفتية، الشّباب، وكبار السن، ليست في مستوىً واحد.
- الالتفات إلى جنس ونوع المخاطبين.
- التدقيق في المستوى الدراسي لدى المخاطبين.
- الأخذ بعين الاعتبار الوضع الروحي والنفسي عند المخاطبين.
- الالتفات إلى زمان ومكان الخطاب.

7. وضوح الخطاب:

من الخصائص الهامّة للخطاب أن يكون واضحاً شفافاً، والمراد من ذلك، أن يكون صريحاً وسلساً وخالياً من الألفاظ والمصطلحات المعقدّة والغريبة.

(1) انظر: مطهري، مرتضى، الملحمة الحسينية، ج1، ص197 (مجموعة آثار الشهيد مطهري)، ج17، ص325.

ولو نظرنا إلى أكمل الكتب الإلهية أي القرآن الكريم، لوجدناه يقدِّم خطابه السَّماوي في أوْج البلاغة والوضوح والبيان. وها هو يبيِّن خصائصه قائلاً: ﴿... الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ﴾[1]. ﴿... قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ﴾[2]. وإذا كان الناس قد انجذبوا إلى القرآن في أوائل أيّام نزوله, حتى أن رؤوس أهل الشِّرك كانوا يأتـون في عتمة الليل خلف منزل النبي' للاستماع إلى صوت القرآن، فإنَّ السّبب في ذلك هو أنّ المفاهيم العالية للقرآن كانت مفهومة عندهم بكلِّ وضوح ويسر.

ومن جهة أخرى، فقد أمر الله أنبياءه بإبلاغ الخطاب وإيصاله إلى آذان الناس صريحاً، شفَّافاً وواضحاً. ﴿... وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾.[3] وهذا نبيُّ الله موسى عليه السلام يطلب من ربِّه بلاغة البيان واللِّسان من أجل التَّبليغ الإلهي: ﴿وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ٢٧ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي﴾[4]. ونُقِل عن أمير المؤمنين علي عليه السلام أنَّه قال: "أحسنُ الكلام ما زانه حسن النظام وفَهِمَه الخاصُّ والعامُّ"[5]. فلنسعى تأسِّياً بالقرآن الكريم وسيرة المعصومين عليهم السلام إلى نقل الخطاب للناس بشكلٍ صريحٍ وشفافٍ وواضح.

هناك ثلاثة عناصر تُشترط لكي يؤتي التبليغ ثماره يانعة، وهذه العناصر هي: أن يكون الخطاب واضحاً. أن يكون مضمونه ممكناً ومجدياً.

والسبب في ذلك واضح؛ لأن الخطاب المبهم يموت في الطريق إلى المستمع، وبذلك لا يتحقق الغرض من التبليغ، بل لا يتحقق التبليغ أصلاً باعتبار أن التبليغ هو علاقة ونسبة تقوم بين ثلاثة أطراف هي الخطاب والمخاطِب والمخاطَب، فإذا لم يكن الخطاب واضحاً لم يصل إلى المخاطَب، وإذا خرج المخاطَب من حيّز الأطراف انهارت النسبة والعلاقة

(1) سورة الحجر، الآية 1.
(2) سورة المائدة، الآية 15.
(3) سورة العنكبوت، الآية 18.
(4) سورة طه، الآيتان 27-28.
(5) غرر الحكم، ج1، ص210.

ولم يقع تبليغ. من هنا نجد أن سمة القرآن الكريم الأساسية هي أنه يتصف بدرجة عالية من الوضوح في حين أنه فصيح بليغ ويحمل مضامين في غاية الدقة والعمق في تركيب إعجازي عجيب. قال تعالى: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾[1]. ﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ﴾[2].

أما إمكانية تحقق مضمون الخطاب، فهي الأخرى ضرورية، إذ المنهج الذي لا يمكن تطبيقه على الأرض، يبقى معلقاً في الهواء ولا يمكن الاستفادة منه.

وفي هذا المجال اهتمَّ الإسلام بتقديم الأسوة كأحد أنجح وأفضل أساليب التبليغ حيث تتصدى شخصية مسلمة واعية لتوجيه الناس وإرشادهم شريطة تجسيدها معالم الفكرة التي تدعو لها. ولهذا كان الإصرار على الدعوة الصامتة: "كونوا دعاة للناس بالخير بغير ألسنتكم"[3].

وبهذا أيضاً يمكن تفسير فلسفة كون الأنبياء من جنس البشر، ليؤكّدوا من خلال ذلك حقيقة أن ما يحملونه من رسالة، أمر ممكن تطبيقه على المستوى البشري إذا شاء الإنسان ذلك وسعى إليه بجدّ. ولقد كابر وجانب الصواب كثيراً من احتج على كون الأنبياء من البشر مطالباً بأن يكونوا من الملائكة. وأخيراً، لابدّ أن يكون مضمون الخطاب – بغض النظر عن نوعه – مجدياً لأجل أن يتفاعل معه المخاطَب إذ يرى أنه يعود عليه بالفائدة.

ختاماً:

يحتاج الإنسان إلى التربية والهداية الإلهية في عملية رقيّة وتكامله. وعلى الرغم من أننا لا نعيش في عصر النبي الأكرم ﷺ، بيد أن بإمكاننا الاستفادة من تعاليمهم والسير على النهج الذي اختطوه لنا، كي لا نقع في

(1) سورة يوسف، الآية 1.
(2) سورة النحل، الآية 89.
(3) أصول الكافي، ج2، ص 86، باب الصدق والأمانة.

الانحراف. إن الاهتمام بالأحاديث المأثورة عن المعصومين عليهم السلام ودراسة سيرتهم تعرّفنا بأركان الهداية والتكامل في النهج الذي أرادوه لنا. فمن وجهة نظر الإسلام لا تكون الاستفادة من الشرائع الدينية والأحكام الإسلامية ممكنة إلا من خلال التأسي بنهج وسُنّة المعصومين عليهم السلام، فقد رُويَ عن الإمام جعفر الصادق عليهم السلام أنه قال: "لا يُعرَف اللهُ ودينُه وحدودُه وشرائعه، بغَير ذلك الإمام"[1]. ولذلك يجب في الشريعة الإسلامية اتباع الولاية التي تبدأ بالنبيّ والأئمة، وتنتهي بالفقيه الجامع للشرائط (في عصر الغيبة)، وصولاً إلى الإمام المهدي عجل الله فرجه. رُويَ عن الإمام محمد الباقر عليه السلام أنه قال: "أفضلُ ما يتقرّب به العِبادُ إلى اللهِ عزّ وجلّ، طاعةُ اللهِ، وطاعةُ رسوله، وطاعةُ أولي الأمر"[2].

ولهذا لم يعد من المقبول أن يبقى الخطاب الديني والثقافي أسيراً للقرون الخالية والأساليب البالية، بل بات من اللازم والضروري إعادة التنقيب والتدقيق في الخطاب القرآني، وفي الخطاب الذي قدّمه الرسل والأنبياء عبر التاريخ، ولاسيما نبي الإسلام محمد صلى الله عليه وآله وأئمة أهل البيت عليهم السلام، ودراسته من جميع النواحي والمزايا، فإنّ تقصير السلف لا يبرّر لأحد أن يهمل دراسة هذا الجانب الغني والعميق من تراثنا، أو الاكتفاء ببعض جوانبه، ما قد يعرّضنا للاستحالة الثقافية والفكرية والوقع في تيه الأفكار المنحرفة والقيم الهابطة التي غزت عقول البشرية في هذا الزمان. طبعاً بملاحظة مقتضيات الزمان وأحواله، وطبيعة المخاطبين واحتياجاتهم، والتحدّيات الفكرية والثقافية والاجتماعية والتربوية المحيطة بنا.

ولله الحمد

(1) المجلسي، بحار الأنوار، ج24، ص290.
(2) الكليني، أصول الكافي، ج1، ص144.